ترجمة

معركة الفلوجة الأولى 2004

معهد الحرب الحديثة في الأكاديمية العسكرية الأمريكية "MWI"

ترجمة : الخطابي للدراسات
نوفمبر/تشرين الثاني 2023

مركز الخطابي للدراسات
Khattabi Centre for Studies

مَعْرَكَةُ الفَلُوجَةِ الأُولَى 2004

معهد الحرب الحديثة في الأكاديمية العسكرية الأمريكية «MWI»

كتبه جون سبنسر وجايسون غيروكس - بتاريخ 28-10-2022

ترجمة : مركز الخطابي للدراسات

نوفمبر/تشرين الثاني 2023م

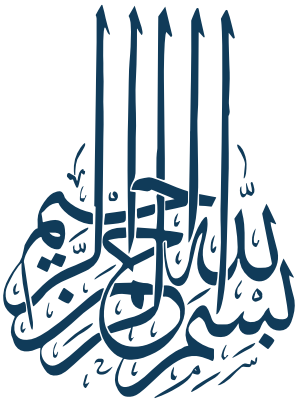
بسم الله الرحمن الرحيم

جرت معركة الفلوجة الأولى ما بين الثالث من أبريل/نيسان والأول من مايو/أيار 2004، ضمن عملية «حرية العراق»، وتقع مدينة الفلوجة على نهر الفرات ضمن محافظة الأنبار، على بعد ثلاثة وأربعين ميلاً غرب عاصمة العراق بغداد، وهي مدينة صناعية كثيفة السكان، ولها تاريخ عريق، يمتد من تأسيسها كمحطة[1] على طريق الحرير القديم وتفرعاتها التي ربطت بغداد بكبرى المراكز السكانية، مثل مدينة حلب السورية.

موقع مدينة الفلوجة

عام 2004، كانت التقديرات السكانية للفلوجة تبلغ ما بين مئتين وخمسين ألف إلى ثلاثمئة ألف نسمة[2]. وتبلغ مساحة المدينة ثلاثة كيلومترات مربعة،

1- https://www.amazon.com/Ghosts-Fallujah-Coley-D-Tyler/dp/1947309048

2- https://www.usmcu.edu/Portals/218/FALLUJAH.pdf.

وفيها أكثر من ألفي كتلة سكنية مصفوفة بشكل أقرب للشبكة، وفي المدينة أكثر من خمسين ألف مبنى، معظمها من البيوت الخرسانية بطابقين، مع وجود بعض البيوت الفارهة، والأفنية المسوَّرة، والمنازل غير المكتملة، والمعامل متعددة الطوابق المتداعية في المناطق الصناعية. ويحيط بالمدينة من ثلاث جهات معالم تضاريسية طبيعية وصناعية وهي: نهر الفرات من الغرب، وشبكة سكك حديدية من الشمال، وطريق الأوتستراد 11 تسير على حافتها الشرقية. وأما الأوتستراد 10، فيتفرَّع إلى ستة طرق، يمتد إلى وسط المدينة، وتنتشر في الفلوجة الطرق الفسيحة المحفوفة بالأشجار والأزقة، التي امتلأت وقت المعركة بأكوام القمامة وحطام السيارات.

تُعرف الفلوجة بأنها «مدينة المساجد» لأنها تضم أكثر من مئتي مسجد[1]، وهي مركز مهم للمسلمين السنة في العراق، والواقع أن أئمة المساجد هم من قادوا معظم التمرد، لما يعتنقونه من «الوهابية» المتطرفة، ومقاومتهم للأجنبي، ودعاويهم بأن أمريكا جاءت للعراق بغية تدميره، ما ألهب أتباعهم لمعاداة التحالف. وكذلك سعى مشايخ القبائل لتعزيز مكانتهم القبلية في عهد ما بعد صدام حسين.

1-https://books.google.ca/books/about/City_Without_Joy.html?id=qGq6tgAACAAJ&redir_esc=y

المساجد في مدينة الفلوجة (المصدر: صحيفة الشرق الأوسط)

وتشـكَّل مزيـجٌ مـن الأعـداء[1] يتكـوَّن مـن البعثيـين السـاخطين [الـذي شـملهم قـرار اجتثـاث البعـث]، وضبـاط الجيـش السـابق، والمجرمـين المحليـين، والمقاتلـين الأجانـب. ويـدلُّ تنـوع هـذه المجموعـات عـلى أنهـم انطلقـوا للعمـل مـن بيوتهـم، ولم تكـن لهـم هيـاكل تنظيميـة مركزيـة، ولا عقـد قيـادة وسـيطرة، ولا اتصـالات يمكـن اعتراضهـا، ولا تسلسـل قيـادة هرمـي واضـح.

وكان للعـدو أكـثر مـن سـتمئة مخبـأ للأسـلحة[2] في أنحـاء المدينـة ومعظمهـا كانـت في مسـاجد المدينـة، ثـم باتـت المدينـة منطقـة دعـم ومـلاذاً آمنـا للقائـد الإرهـابي أبـو مصعـب الزرقـاوي[3] وشـبكته المعروفـة بتنظيـم القاعـدة. فكانـت الفلوجـة بمثابـة «الجمـر تحـت رمـاد التمـرد»[4].

1- https://www.armyupress.army.mil/Portals/7/Primer-on-Urban-Operation/Documents Breaking-the-Mold.pdf

2- http://shop.strategyandtacticspress.com/ProductDetails.asp?ProductCode=MW23

3- https://books.google.ca/books/about/City_Without_Joy.html?id=qGq6tgAACAAJ&redir_esc=y

4- https://www.google.com/books/edition/U_S_Marines_in_Iraq_2004_2008

المعركة

قبل معركة الفلوجة الأولى، لم يكن هناك حضور للقوات الأمريكية في المدينة إلا قليلاً، وكان القتال العنيف الذي جرى في أبريل/نيسان 2004 أوَّلَ عملية قتالية كبرى في المدينة. وجرت المعركة بين عدد كبير من المتمردين، وبين فريق الفوج القتالي الأول لفرقة المارينز الأولى وعدد من قوات الأمن العراقية.

وتناوبت العديد من وحدات الجيش الأمريكي على الفلوجة منذ غزو التحالف للعراق مارس/آذار 2003، بما فيها بعض من قوات الفرقة 82 المجوقلة، وهذه الوحدات قليلة العدد نسبةً لحجم المدينة التي تولت مسؤوليتها، اتبعت مراراً مقاربة «الجزرة والعصا»[1]: فالجزرة كانت عدة عقود سخية لمشاريع إعادة إعمار ومبادرات عمل مدني، والعصا كانت العديد من الغارات العنيفة على قادة الأعداء المهمِّين وقمع المظاهرات الاحتجاجية.

وقد تنوعت درجات النجاح في طريقة العمل هذه، لكن لم تكن هناك قوات أمريكية تكفي لإحراز تقدم في المدينة، فهي لم تساعد الشرطة العراقية المحلية، نتيجة لذلك لم تشأ الشرطةُ التورطَ في الاشتباك مع المتمردين، كذلك حدثت سلسلة من الصدامات ما بين مدنيين مسلحين والجنود الأمريكيين في الفلوجة، ساهمت في غليان الأوضاع.

وسرعان ما وقعت المدينةُ تحت سيطرة فصائل التمرد، وتصاعدَ العنفُ تدريجياً ضد الوجود الأمريكي.

1-https://www.armyupress.army.mil/Portals/7/Primer-on-Urban-Operation/Documents/Breaking-the-Mold.pdf

وسـلَّمت الكتيبـة الأولى[1]، التابعـة لفـوج المشـاة المظليـة 505 مسـؤوليةَ الفلوجـة لفرقـة المارينـز الأولى بتاريـخ 24 مـارس/آذار 2004. وأراد قائـد القـوة التجريديـة الأولى مـن المارينـز الفريـق (جايمـس كونـاي) تطبيـقَ شـكل مختلـف مـن مقاربـة الجـزرة والعصـا، بحيـث يتفاعـل جنـود المارينـز أكـثر مـع السـكان المدنيـين، بينـما تتـولى قـوات العمليـات الخاصـة تصفيـة قـادة المتمردين بأسـلوب أكـثر.

أراد المارينـز مـن هـذه المقاربـة التسريـع في تسـليم مسـؤولية[2] المدينـة لقـوات الأمـن العراقيـة المحليـة، التـي لم تكـن تعلـم الحجـم الحقيقـي للتمـرد في المدينـة وعمقـه.

وحتـى قبـل تسـلم المارينـز لكامـل مسـؤولية الفلوجـة، لم يكـن الموقـف سـليماً، وتكبـد المارينـز إحـدى عـشرة إصابـة (بـين قتيـل أو جريـح) عنـد تسـييرهم دوريـات للتعـرف عـلى البيئـة مـع الفرقـة المجوقلـة 82.

وقعـت أول تلـك الحـوادث في 18 مـارس/آذار، عندمـا هاجـمَ المتمـردون[3] مجموعـة قيـادة المارينـز عـلى الأوتسـتراد 10، وبعـد ثمانيـة أيـام في 26 مـارس/آذار، انفجـرت قنبلـة بقـوة أمريكيـة داخـل المدينـة. وبعدهـا، حاولـت دوريـات مارينـز أُرسِـلت إلى الفلوجـة تأمـينَ طريـق آمـن، في بيئـة تبـيَّن بعـد الدخـول إليهـا بأنهـا محتدمـة جـداً، فخاضـوا فيهـا سلسـلة اشـتباكات ناريـة اسـتمرت 36 سـاعة[4]، وتسـببت بمقتـل خمسـة عـشر عراقيـاً.

1- https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

2- http://shop.strategyandtacticspress.com/ProductDetails.asp?ProductCode=MW23

3- https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

4- https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

جنود أميريكيون يحاولون إجلاء زميلهم المصاب على تخوم مدينة الفلوجة 2004

ورابع هذه الحوادث، والتي رأى الجميع بأنها هي التي أشعلت المعركة الكبيرة، هو ما حدث في 31 مارس/آذار، حين تجاوز أربعة متعاقدين أمريكيين من شركة بلاك ووتر العسكرية الخاصة نقطةَ تفتيش للمارينز بسيارتين، ودخلوا المدينة، ويغلب الظن أنهم لم يدركوا بأنهم قد دخلوا عش الدبابير، ثم وقعوا بكمين مُحكَم للمتمردين المسلحين بالأسلحة الصغيرة والآر بي جي.

وبعد قتل المتعاقدين الأربعة والتمثيل بجثثهم وتقطيعها وحرقها، عُلِقت اثنتان منها على الجسر الحديدي فوق نهر الفرات وسط هتافات الجماهير المبتهجة[1]، والتي هتفت مهددة «الفلوجة مقبرة الأمريكان»، وخلال ساعات معدودة بُثت مقاطع تعليقهم على الجسور على القنوات الإخبارية حول العالم.

وتصدَّرَت عناوين تحريضية صحف اليوم التالي مثل «التمثيل بمدنيين

1- https://www.pbs.org/newshour/nation/middle_east-jan-june04-iraq_03-31

أمريكيين في هجوم عراقي»[1] و»البرابرة في الفلوجة»[2]. وكانت تلك الروايات أشبه ما تكون بحادثة مقديشو 1993، حيث مثّل الصوماليون بجثث جنود أمريكيين وسحلوهم في الشوارع.

لقد أدرك الفريق (كوناي) وقائد فرقة المارينز الأولى اللواء (جايمس ماتيس)[3] بأن هذا الحدث ما هو إلا مكيدة يريد منها المتمردون أن يستدرجوا التحالف إلى رد فعل عنيف وعملية قتالية كبرى، وبهذا الفعل سنبعث رسالة خاطئة ونعرض المدنيين لخطر غير ضروري، لينتهي بنا الأمر للفشل في تحقيق مقصدنا الأول المتمثل في العثور على الأفراد المسؤولين عن عملية القتل هذه.

وبدلاً من الرد العارم الفوري، أراد ماتيس فسح الوقت للتحضير الاستخباراتي المنهجي لساحة المعركة (methodical intelligence preparation of battlefield)[4]، يتبعها رسم خطة بتأني تهدف للسيطرة على المدينة. ولكن القيادات السياسية العليا في واشنطن (بمن فيهم الرئيس) والمؤسسات الإعلامية الأمريكية[5] طالبوا برد فوري عام عنيف، لكن القائدين كوناي وماتيس عارضوا بشدة هذا الأمر، فقد أيقنا وقتها بأن أي هجوم مضاد عملياتي مبني على الانتقام هو بالضبط ما يخدم أهداف التمرد الإستراتيجية.

ومما زاد الطين بلة ضيق الوقت المتاح للمارينز في إجراء التحضير الاستخباراتي

1- https://www.washingtonpost.com/archive/politics/200401/04//us-civilians-mutilated-in-iraq-attack/1c9a38a80-9850-4814-2570-e6e5a766922/

2- https://nypost.com/2004/04/01/barbarians-of-fallujah-butchers-kill-four-u-s-civilians-hang-mutilated-bodies-on-bridge-5-gis-also-slain-on-day-of-horror/

3- https://www.usmcu.edu/Portals/218/FALLUJAH.pdf

4- التحضيرات الاستخباراتية لساحة المعركة: هي إجراءات تحليلية تعمل على كشف تأثيرات التضاريس والطقس والعقيدة العسكرية للعدو على ساحة المعركة للوصول إلى استنتاجات.

5- https://www.amazon.ca/No-True-Glory-Frontline-Fallujah/dp/0553383191

المنهجي على المدينة أو إجراء باقي خطوات عملية التخطيط العسكري، وهكذا أُغلِقَت كل هذه النقاشات وكان التوجيه للماينز: تنفيذ المهمة في غضون 72 ساعة[1].

وفي الثاني من أبريل/نيسان، نُصِبت نقاطُ التفتيش حول المدينة لضمان منع كل الذكور القادرين على حمل السلاح من الخروج من المدينة، مع السماح بخروج المصطحبين عوائلهم فقط، وفي الثالث من أبريل/نيسان، وُجِّهَت فرقة المارينز الأولى لتنفيذ عملية هجومية على الفلوجة.

طلبَ اللواء ماتيس الذي سيطر عليه الإحباط تخصيصَ وحدات من الجيش الأمريكي من احتياط مسرح العمليات، وفوج مارينز إضافي، ووحدة دبابات، إلا أن طلبه رُفِضَ،[2] وهو ما أجبره على سحب قوات من مناطق أخرى من محافظة الأنبار لتنفيذ العملية.

وباستعراض بأثر رجعي، يُرجَّحُ أن رفض تخصيص [ماتيس] مزيداً من القوات، يعود الى أن الأمريكان بمجموعهم انشغلوا باحتواء التمرد، نتيجة تصاعد القتال وخروجه عن السيطرة[3] ووصول عدوى انتشاره إلى الرمادي، وكذلك في الموصل وبغداد والنجف أوائل أبريل/نيسان.

كانت أهداف[4] عملية «الحل الحذر» هي اعتقال قاتلي عناصر بلاك ووتر، وطرد المقاتلين الأجانب، ومصادرة جميع الأسلحة الثقيلة من المدينة، وإعادة فتح أوستراد 10 للعبور العسكري. وأسند اللواء ماتيس هذه المهمة لفريق الفوج

1- https://www.hsdl.org/?abstract&did=682897%20%20%20%20%20https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

2- https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

3- المصدر السابق نفسه.

4- https://www.amazon.com/No-True-Glory-Frontline-Fallujah/dp/0553383191/

القتالي[1] الأول، تحت قيادة العقيد جون تالون، وتألفت قوته في البداية[2] من الكتيبة الأولى (التابعة للفوج الخامس مارينز) والكتيبة الثانية (التابعة للفوج الأول من المارينز)، وسرية دبابات الإسناد، وسرية اقتحام برمائي، وبطارية مدفعية. وتمثلت الخطة بأن يطوق الفوج المدينة، مع تنفيذ إغارات ضد قادة المتمردين.

ومن بعدها تُنفَّذ عمليات تطهير[3] وإغارات أكبر بكتيبتي المشاة داخل المدينة، لتحقيق باقي أهداف العملية، ثم تسليم مسؤولية الأمن إلى قوات الأمن العراقية.

وبأقل من ثلاثة أيام لتخطيط العملية وتنفيذها، بدأ العمل دون أن ينال نصيباً وافياً من الدراسة في الرابع من أبريل/نيسان. وقد كُلِّفت فرقٌ صغيرة من العمليات الخاصة بدايةً بمهمة الدخول إلى المدينة واعتقال أهداف عالية القيمة، بينما يتحرك فريق الفوج الأول القتالي والقوات العراقية[4] لاتخاذ مواقع تُطوِّقُ المدينةَ.

وتضمن التطويق خطةً لقوات الدفاع المدني المحلية العراقية والشرطة العراقية، بحيث ينشئون سبع نقاط تفتيش داخلية، بينما تعمل الكتيبة الأولى (التابعة للفوج الخامس) تحت قيادة المقدم برينين تي بيرن والكتيبة الثانية (التابعة للفوج الأول) تحت قيادة المقدم غريغ بي أولسن على إنشاء خمسة مواقع صد خارجية حول الحافتين الشرقية والشمالية من المدينة. وانفتحت الكتيبة الأولى الاستطلاعية لإجراء دوريات شمال المدينة وشرقها، لمنع أي متمرد من رمي

1- فريق الفوج القتالي: هي وحدة مؤقتة تنظيمية تكتيكية كبيرة من المشاة، يُلحق بها مدفعية وهندسة ومفارز اختصاصية أخرى.

2- https://www.hsdl.org/?view&did=682897

3- المصدر السابق نفسه.

4- المصدر السابق نفسه.

قذائف هاون أو إطلاق صواريخ، بينما تحركت السرية د (التابعة للكتيبة الأولى الاستطلاعية المدرعة الخفيفة) لتغطية الأوتستراد الكبير على الحافة الشرقية من المدينة. وفي تلك الأثناء، رفعت الكتيبةُ 74 للبناء المتنقلةُ البحريةُ ساتراً ترابياً[1] حول الجهة الجنوبية من المدينة، دعمًا للمارينز في جهودهم لعزلها.

وفي اليوم التالي، الخامس من أبريل/نيسان، بدأ فريق الفوج الأول القتالي الاقتحام على مشارف الفلوجة، وكانت خطة الهجوم بأن تدخل الكتيبتان المدينةَ من جهتين[2]، بغرض تضييق الخناق على المتمردين بين جبهتين، وكانت مهمةُ الكتيبة الثانية (تحت قيادة المقدم أولسن) معززةً بسرية من الكتيبة 36 مغاوير العراقية، اقتحامَ الناحية الشمالية الغربية (المُتمثِّلة بحي الجولان) والتقدم جنوباً ثم تكمل إلى جنوب الشرق.

بينما الكتيبة الأولى (تحت قيادة المقدم برين) – وهي نفسها الكتيبة التي قاتلت من داخل هوي سنة 1968 [في الحرب الفيتنامية] – تقتحم من الناحية

1- https://www.hsdl.org/?view&did=682897

2- المصدر السابق نفسه.

الجنوبية الغربية للمدينة، حيث المنطقة الصناعية، فتهاجم باتجاه الشمال ثم الشمال الغربي، وللكتيبتين منظومة إسناد واسعة[1]، والتي تضمنت في مختلف أوقات المعركة طائرات إف 16 المقاتلة، وطائرة مسلحة ثقيلة للهجوم الأرضي أي سي 130، ومروحية كوبرا (AH-1W)، بالإضافة لإسناد نيران المدفعية من الكتيبة الأولى (التابعة للفوج 11 من المارينز) ومدافع الهاون من ضمن قوام الكتيبة. وكل وحدة زُوِّدَت في وقت مُعيَّن بفصيلة دبابات واحدة[2] من السرية ج التابعة لكتيبة الدبابات الأولى، وبمراجعة ما بعد العمل تبين أنه لم يكن لهذه الدبابات تأثير يُذكر في مرحلة التمهيد.

وواجهت الكتيبتان مقاومة عنيفة على الفور، والعدد الدقيق لأفراد العدو غير معلوم نظراً لضيق وقت التحضير، وتراوحت التقديرات الاستخباراتية ما بين خمسمئة إلى ستة آلاف متمرد[3]. وتفاجأ المارينز بشوارع تسدها سيارات وحافلات فارغة، بينما تحرك العدو في مجموعات من خمسة إلى عشرة أفراد[4]، تتابعت في السير إلى مباني المعامل الفارغة، لشن كمائن هجومٍ بالنيران ارتجالية، بأسلحة الأي كي 47 والآر بي جي.

1- https://www.hsdl.org/?view&did=682897

2- https://www.google.com/books/edition/U_S_Marines_in_Iraq_2004_2005

3- http://shop.strategyandtacticspress.com/ProductDetails.asp?ProductCode=MW23

4- https://www.amazon.com/No-True-Glory-Frontline-Fallujah/dp/0553383191/

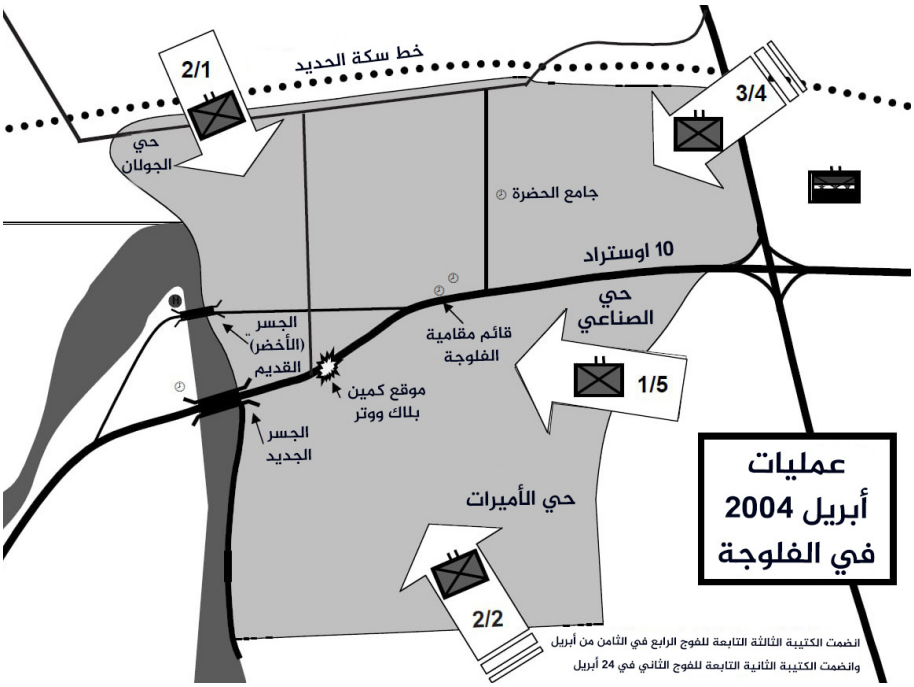

ثم ينسحبون إلى المدينة أو يعيدون تمركزهم في أبنية أخرى، وفي ساعات النهار، تتحرك هذه الأمواج من المتمردين في مجموعات وتتجمع في المدينة، وتتحرك ككتلة لتهاجم المارينز، واتضح بأن العدو أفضل استعداداً ممّا توقعه المارينز. [ويصف كاتب] بصراحة خلاصة المعركة بما واجهه المارينز قائلاً[1]: «باغت المتمردون القواتِ الأمريكية بهجمات مُنسَّقَة، استخدموا فيها وابلاً منسقاً وموحَّداً من قذائف الآر بي جي، مع استخدام فعال للنيران غير المباشرة، وناورَ العدو بفعالية وصمد مقاتلاً». وكذلك جمعوا بين استخدام الآر بي جي والعبوات الناسفة.

ونظراً لضراوة المقاومة والقتال المستمر، لم تستطع القوات العراقية تقديم دعم يُذكر لاقتحام فريق الفوج الأول القتالي، فاضطر اللواء ماتيس في السادس

1- https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

مـن أبريل/نيسـان طلـب تعزيـزات[1] مـن فريـق الفـوج السـابع القتـالي لترُسَـلَ إلى المدينـة، وأُرسِـلت أيضـاً مـن بغـداد الكتيبـة الثانيـة مـن الجيـش العراقي بتعـداد 620، لكنهـا صادفـت مظاهـرات عراقيـة غاضبـة في الطريـق، دفعتهـا لرفـض الذهاب إلى الفلوجـة[2] وتفككـت الوحـدة. وفي السـابع مـن أبريل/نيسـان، انضـم المقـدم بريـان مكـوي بكتيبتـه الثالثـة (التابعـة للفـوج الرابـع مـن المارينـز) إلى فريـق الفـوج الأول القتـالي في القتـال، وكُلِفـت[3] أن تقتحـم الناحيـة الشـمالية الشرقيـة مـن المدينـة، وأُطلِـق عـلى هـذه المنطقـة اسـم تعريفـي «مانهاتـن الشرقيـة» مـن قبـل الأمريـكان، وكان عليهـا أن تمشِّـط المنطقـة نحـو الغـرب.

وبـدأت ضراوة القتـال تتزايـد شـيئاً فشـيئاً، وفي السـابع مـن أبريل/نيسـان، واجهـت قافلـة إمـداد للمارينـز كمينـاً مركبـاً، بقـوام مـا بـين أربعـين إلى خمسـين متمـرداً حاملـين الأسـلحة الصغيـرة وقاذفـات الآر بي جـي والهـاون، فهاجـم المارينـز الكمين ليقتلـوا سـتة وعشريـن متمـرداً. ولتعويـض نقـص المدرعـات اسـتخدم المارينـز قـدراً هائـلاً مـن الإسـناد النـاري لباقـي المعركـة بالهـاون والمدفعيـة وطائـرات إف 16 وأي سي 130 ومروحيـات كوبـرا، لترمـي عـلى مجموعـات العـدو التـي تحـاول التحـرك نحـو كتائـب المشـاة الأمريكيـة.

واسـتغل المتمـردون القتـال العنيـف ودمـار المدينـة بتوجيـه حملـة عمليـات معلومـات (إعلاميـة)[4] مُكثَّفَـة، تهـدف لإظهـار الأمريـكان عـلى أنهـم يدمـرون المدينـة غـير

1-https://www.google.com/books/edition/U_S_Marines_in_Iraq_2004_2005/i26UnQEACAAJ?hl=en

2- https://www.amazon.ca/Fiasco-American-Military-Adventure-Iraq/dp/0143038915

3- https://www.google.com/books/edition/U_S_Marines_in_Iraq_2004_2005

4- عمليـات المعلومـات: تُعـرف أيضـاً بعمليـات التأثـير، وهـي عمليـات تتضمـن جمـع معلومـات تكتيكيـة عـن العـدو ونـشر بروباغنـدا سـعياً لتحقيـق التفـوق عليهـا. وتشـمل الشـائعات والحـرب النفسـية والخـداع العسـكري.

مبالين بالخسائر المدنية[1]، وأن القصف الجوي غير دقيق، وأن البيوت والمدارس تُقصَفُ عشوائياً.

وقبل أن تبدأ المعركة، سمح المتمردون للصحفيين وطواقم الأخبار (وبالذات وكالات الأخبار العربية) بدخول المدينة، ونشر التقارير من قلبها، وكانت قناة الجزيرة الأكثر تأثيراً، حيث تمركز صحفيوها وطواقمها في مستشفى المدينة[2]، وبثوا منها باستمرار صوراً ومقاطع لجرحى مدنيين بينهم أطفال ونساء.

وسرعان ما انتشرت السردية[3] التي تزعم بأن الأمريكان ينفذون عملية تدمير كبرى للمدينة، والبث المباشر لمستوى التدمير الهائل عبر وسائل الإعلام مُتضمِّنَة خسائر مدنية وأضراراً جانبية في البنى التحتية كان لها تأثير فوري، ولم ينل معظم المدنيين فرصةً حقيقية لمغادرة المدينة نظراً للجداول الزمنية القصيرة للعمل.

لقد بدأ القادة السياسيون والعسكريون الأمريكيون العملية دون خطة عمليات معلومات (إعلام) متماسكة، لمواجهة سردية العدو [الإعلامية]. ونتج عن ذلك معارضةُ الشعب العراقي وقادته الحكوميين وغالب المجتمع الدولي العمليةَ جهاراً نهاراً. وكذلك بدأ الكثير من كبار القادة السياسيين الأمريكيين والعراقيين (بمن فيهم أعضاء مجلس الحكم العراقي ودول مهمة من التحالف الدولي) في الاحتجاج[4] ومعارضة العملية صراحةً. وفي نهاية المطاف هدد مجلس الحكم العراقي بالاستقالة الجماعية[5]. وبسبب السردية المُسيئة، وتصاعد معارضة

1- https://www.theglobeandmail.com/arts/fearless-in-fallujah/article20437015/;

2- https://www.amazon.com/No-True-Glory-Frontline-Fallujah/dp/0553383191/

3- السردية: وهي الكيفية التي يُروى بها الحدث عن طريق السارد تحت تأثير عدد من العوامل المتعلقة بالسارد والمسرود له.

4- http://shop.strategyandtacticspress.com/ProductDetails.asp?ProductCode=MW23

5- https:\www.amazon.com\No-True-Glory-Frontline-Fallujah\dp\0553383191

العملية، والتقدير العسكري للمدة المطلوبة لإنجاز الأهداف، ومخاطر انهيار مجلس الحكم العراقي، والخطط الأمريكية لنقل السيادة إلى الجانب العراقي، قرر الجنرال جون أبي زيد (قائد القيادة المركزية) ورئيس سلطة التحالف المؤقتة السفير بول بريمر تعليق جميع العمليات الهجومية في الفلوجة[1].

وفي التاسع من أبريل/نيسان، كان المارينز قد استولوا على ربع الأجزاء الخارجية من المدينة، وعندها تلقوا أوامر بإيقاف جميع العمليات الهجومية والثبات في أماكنهم، أخبرهم الفريق كوناي بأن التوقف مؤقت[2]، ولن يستمر إيقاف إطلاق النيران أكثر من 24 ساعة، وفي 11 أبريل، استأنف الفوجان الثالث والأول هجماتهم[3]، ظناً منهما بأنهما على وشك كسر المقاومة.

لكن بعد مدة قصيرة، تلقوا أمراً جديداً بالتوقف، مما أثار غضب اللواء ماتيس الصارخ من القرار، فقد ظن بأن المارينز على وشك القضاء على المتمردين، لانقطاع الإمدادات عنهم.

وأعرب عن هذا الإحباط علانية باقتباسه[4] مقولة نابليون: «أُمِرنا في البداية بالدخول، والآن نؤمَر بالخروج. فإن كنت تريد أخذ فيينا فبالله عليك سيدي، خذها». وقد اتفق معه بهذا الرأي الكثير من جنوده من المارينز.

وعبر الأسبوعين التاليين، انتظر المارينز العودة للقتال وإكمال العملية، بينما كان التحالف ومجلس الحكم العراقي وشيوخ عشائر الفلوجة ومسؤولوها يخوضون مفاوضات مطولة. وفي نفس الوقت عمد المارينز لتحصين مواقعهم على مشارف المدينة.

1- https:\www.amazon.com\No-True-Glory-Frontline-Fallujah\dp\0553383191

2- المصدر السابق نفسه.

3- المصدر السابق نفسه.

4- المصدر السابق نفسه.

ووُجِّهَت كتيبة أخرى هي الكتيبة الثانية التابعة للفوج الثاني من المارينز تحت قيادة المقدم غايلس كايسر، حتى تنضم إلى فريق الفوج الأول القتالي، وتمركزت على المشارف الجنوبية الغربية من المدينة، حتى تستعد لاستئناف العمل، لكن الكتيبة آل بها الحال أن تتقدم بطيئاً نحو الشمال قرب المنطقة التي أطلق عليها الأمريكان اسماً تعريفياً ملكات «كوينز».

ولم يتلقَ المتمردون داخل المدينة وفي القرى المحيطة بها أوامرَ بوقف نشاطاتهم، فعمدوا للهجوم على المارينز المتوقفين أينما ووقتما استطاعوا، فكثُرَت الاشتباكات النارية[1] خاصة ما بين 11 و14 أبريل/نيسان.

واختتمت المفاوضات بين التحالف ومختلف ممثلي العراق، بقرار تشكيل «لواء الفلوجة»، وعناصره من الجيش العراقي السني السابق، وأن يستلموا مسؤولية أمن المدينة من المارينز. وكان الأمل أن تتولى هذه الوحدة الجديدة[2] زمام السيطرة على الفلوجة لتحقق الأمن، ولتبدأ عملية إعادة المدينة إلى السيادة الوطنية العراقية، لكن المارينز رأوا اللواء غير فعال، وأنه سيصطف مع التمرد منذ البداية.

وفي 28 من أبريل/نيسان، تجمع لواء الفلوجة على مشارف المدينة، وبتاريخ الأول من مايو/أيار انسحب المارينز[3] من المدينة، وانتهت معركة الفلوجة الأولى. وبالمجموع قُتِل تسعة وثلاثون جندياً أمريكياً وجُرِحَ تسعون آخرين في المعركة، ويُقدر قتلى المتمردين قرابة المئتين، واستحالت معرفة أعداد قتلى المدنيين بدقة، نظراً لعدم إمكانية الوصول إلى المدينة، ولميل العدو لرفع الأرقام، وقدَّر

1- https://www.ida.org/-/media/feature/publications/t/th/the-battle-for-fallujah-al-fajrthe-myth-buster/ida-paper-p-4455.ashx

2- https://www.amazon.com/No-True-Glory-Frontline-Fallujah/dp/0553383191/

3- http://shop.strategyandtacticspress.com/ProductDetails.asp?ProductCode=MW23

البعض بأنه منخفض لا يتجاوز المئتين والعشرين، بينما قدره آخرون[1] بستمئة نصفهم من النساء والأطفال.

1- https://www.britannica.com/event/First-Battle-of-Fallujah

الدروس المستفادة

هناك عدد من العوامل كان لها بالغ الأثر على معركة الفلوجة الأولى، حالت دون نجاح الأمريكان. فالعملية استمرت لستة أيام فقط، قبل أن تُعَلَّقَ ثم تُستكمل عشوائياً، في حالة مُقيَّدَة لكن فعَّالة لثلاثة أسابيع أخرى، وتحليل المعركة يعطينا دروساً إستراتيجية وعملياتية وتكتيكية.

الدرس الإستراتيجي الشامل المُستقى من المعركة ظاهره ينطوي على تناقض، فالدرس المُستفاد هنا أنه في السياق السياسي، لا ينبغي لكبار القادة السياسيين الرد عاطفياً في الحرب وتنفيذ عمل سريع مباشر ضد منطقة حضرية كثيفة، حينما لا تتهيأ ظروف النصر، كان مقتل المتعاقدين الأمريكيين والتمثيل بهم علانية في 31 مارس/آذار، أمراً غير مستساغٍ بالمرّة، ويفرض اتباع مسار عمل لعرض القوة الأمريكية؛ لكنه في حقيقته وبتعجله أصبح عرضاً لضعفها، وانتفع منه التمرد وزاد من الخسارة الإستراتيجية للتحالف.

وقيادة المارينز كان لها خطة منهجيَّة متأنِّيَة للرد على هذه الجريمة، تضمنت إجراءات تخطيط شاملة تؤدي في النهاية لاستيلاء الأمريكان على المدينة بذكاء عبر مدة طويلة من الوقت، ولكن كبار القادة السياسيين فرضوا رؤيتهم عليهم.

مع ذلك، فقد أوحى تفاعل الرأي العام الأمريكي والعالمي مع أحداث الفلوجة وقتها بأنه يتطلب قدراً ما من الردّ الفوري، فالحرب كان لها سياق سياسي قوي، وأحداث الفلوجة خالفت التصور المنتشر قبلها، بأن أمريكا كانت تتقدم في حرب العراق، والحدث هدد بتقويض الدعم السياسي والشعبي لكامل

الحرب، وعلى القادة العسكريين أن يتفهموا الأهداف السياسية لا لمهمة واحدة بمفردها فحسب، بل عليهم أن يربطوها بالمصالح القومية العليا.

وأفضل نصيحة عسكرية في الرد على أحداث 31 مارس/آذار، لم تكن نصيحة «افعل الآن» أو «لا تفعل الآن وافعل لاحقاً». فالقوات الأمريكية افتقرت [وقتها] لفهم تحديات حروب المدن الخاصة بهذا النوع من الحرب – من موقف العدو، وحالة السكان، وعمليات المعلومات، والموقف السياسي على جميع المستويات – الموجودة في الفلوجة، بما يعينها على توفير المتطلبات أو البدائل لتهيئة ظروف النصر ضمن إطار زمني مقبول، فلم تكن الظروف غير مهيئة عسكرياً فحسب، بل ولا سياسياً فيما يخص الأطراف السياسية المعنيَّة، من القادة السياسيين للتحالف وحتى مجلس الحكم العراقي.

والدرس الإستراتيجي التالي هو المتطلبات المحورية لتنفيذ عمليات المعلومات في الحرب الحضرية، وإن كان هذا الدرس ينزل في حقيقته من المستوى الإستراتيجي إلى التكتيكي، فحملة عمليات المعلومات المُكثَّفَة للعدو في الفلوجة، استُخدِمَ فيها العديدُ من وسائل الاتصال لإخراج الأحداث من سياقها ولإظهار الأمريكان على أنهم يعملون دون التزام بالأخلاق، ولم يكن للقادة الأمريكيين من السياسيين والعسكريين حملة عمليات معلومات مرتَّبة الأولويات أو ممولة، كانت لتستطيع أن تدحض دعاية المتمردين سريعاً.

فالأمريكان لم يعملوا على نقض سردية المتمردين بوضوح، لذا لم تُشوَّه هذه العملية دولياً فحسب، بل إن كبار القادة السياسيين العراقيين والأمريكيين أصبحوا قلقين عن كيفية تنفيذ العملية وأثرها على البيئة الإستراتيجية.

وهذا أدى في الختام لقرار إيقاف العملية والتحول لتطبيق إستراتيجية مختلفة، فجاء هذا القرار لصالح خطة المتمردين أيضاً، حيث أن هذا الإلغاء أعانهم

على إعلان انتصارهم، فيجب على خطط المعارك الحضرية أن تتضمن الوقت والجهد لتطوير حملة عمليات معلومات مخططة بإحكام وشاملة، بحيث تهيمن على نطاق المعلومات بإيصال أحداث المعركة إلى الرأي العام فورياً، ولمكافحة التضليل أيضاً.

وعلى المستوى العملياتي، يجب أن يُخصَص الوقت الكافي للقوات العسكرية لإجراء تحضيرات استخباراتية للبيئة الحضرية، فالمارينز الذي شنوا عملية «الحل الحذر»، لم يمضِ على مدة إقامتهم في العراق عامة والفلوجة خاصة إلا أقل من شهر، ولم يكن يتمتعوا بالفهم الكافي لا للمدينة ولا للعدو، ونفاد صبر الإعلام والسياسيين الأمريكيين والذي دفع لعملية انتقامية مُستعجَلَة ضد المتمردين من قتلة الجنود والمتعاقدين الأمريكيين بمارس/آذار 2004، لم يفسح للمارينز في الفلوجة المجالَ أبداً لفهم المدينة التي كانوا على وشك دخولها سريعاً والقتال فيها.

على كل جيش قبل أن يَهُمَّ بتنفيذ عمليات في منطقة حضرية، أن يقدِّم فيه القادة العسكريون أفضل مشورة للقادة السياسيين عن الوقت المطلوب لتخطيط عمليات حضرية وتنفيذها؛ فيخَصَص وقتٌ لفهم المدينة والعدو، وتُنصب مستشعرات المعلومات في أماكنها، وتجمع الاستخبارات البشرية المعلومات، وتُحلل تلك المعلومات بمهنية بغرض فهم البيئة بشمولية. وهذا سينير القرارات عن التأثيرات الحركية وغير الحركية المطلوب تحقيقها لكسب المعارك الحضرية، مادياً وعقلياً عبر مستويات الحرب.

على المستوى التكتيكي، أبرزت معركة الفلوجة الحاجةَ لعدد مناسب من القوات والقدرات الملائمة لتنفيذ هجوم في مدينة كثيفة السكان، وشملت خطة الفلوجة ابتداءً كتيبتي مشاة فقط تدخل لتطهير مدينة من ثلاثمئة ألف نسمة وفيها

عـدد غـير معلـوم مـن المقاتلـين. ولم يخـترق المارينـز قلـب المدينـة حيـث أنشـأ العـدو مناطـق دعمـه وتجهيـزه.

والعـدد المحـدود مـن الكتائـب الـذي رافقـه القليـل مـن إسـناد الدبابـات لم يسـمح للمارينـز بالسـيطرة إلا عـلى أطـراف المدينـة. والعقيـدة العسـكرية للجيـش الأمريـكي والمارينـز تنـص عـلى أن عـزل مدينـة بحجـم الفلوجـة والهجـوم عليهـا يتطلـب أكـثر مـن فرقـة واحـدة، لكـن التحالـف نـشر فوجـاً فقـط (وهـو مـا يعـادل لـواء جيـش). وفيـما يخـص العمليـات الحضريـة الهجوميـة بالأخـص، فـإن العقيـدة[1] تنـص عـلى أن «المعتـاد مـا لا يقـل عـن ثلاثـة إلى خمسـة أضعـاف مـن القـوات المطلوبـة فيـما لو كان القتـال بالأريـاف». وكذلـك، فـإن حزمـة القـوة الفعالـة لحـرب حضريـة عاليـة الشـدة تتضمـن مزيجـاً مـن المشـاة والمدرعـات والهندسـة والمدفعيـة وغيرهـا مـن عوامـل التمكـين مـع ترابـط وثيـق فيـما بينهـم بغيـة هزيمـة العـدو.

. وأخـيراً في المسـتوى التكتيـكي، فـإن معركة الفلوجـة الأولى تظهـر التحدي الحضري المسـتمر في قضيـة حمايـة المدنيـين، فالمدنيـون موجـودون دائمـاً في مجـال القتـال الحـضري، وعـلى القـوات العسـكرية أن تمنـع وقـوع الأذى عـلى المدنيـين، والبنيـة التحتيـة الحيويـة، والأماكـن المحميـة، ومـن الحكمـة دائمـاً إبعـاد أكـبر قـدرٍ ممكـن مـن المدنيـين عـن منطقـة المعركـة قبـل أن يبـدأ القتـال، وجميـع العمليـات الحضريـة تتضمـن خططـاً اسـتباقية لتيسـير إخـلاء المدنيـين. أمـا مـع ضيـق وقـت التحضـير [في هـذا العمـل]، لم يسـتطع الأمريكيـون رسـمَ خطـط اسـتباقية، وحتـى لـو كانـت لديهـم هـذه الخطـط، فـإن غيـاب عمليـات المعلومـات لإيصـال مثـل هـذه الرسـائل كانـت سـتعيق الجهـود لإبـلاغ المدنيـين بـضرورة الهـروب مـن المدينـة بـأسرع مـا يمكـن عـلى الأقـل قبـل أن يبـدأ القتـال.

1- https://armypubs.army.mil/epubs/DR_pubs/DR_a/ARN35826-ATP_3-06-000-WEB-1.pdf

وسكان المدينة كانوا في المدينة حين اندلعت المعركة، واستثمر التمردُ هذا الأمرَ عندما عمل على كشف أي خسائر مدنية في البث الإعلامي العالمي. سيكون التحدي للمعارك الحضرية المستقبلية ضرورةَ حرمان العدو من رسائل عمليات معلومات شاملة، ووجود خطط استباقية لإجلاء المدنيين من المناطق الحضرية، وإجلاء المدنيين الآمن والتعاون مع جميع الأطراف لإيوائهم وإطعامهم وإسعافهم حتى لا يسقطوا كضحايا معارك المدن، فهذا أمرٌ ضروريٌ.

كشفت معركة الفلوجة الأولى بعض التحديات الكبرى في حروب المدن. فعلى العسكريين فهم الصفات الفريدة للمناطق الحضرية، لسكانها، والمَهَمَّة، وبيئة المعلومات، وطول المدة المطلوبة، والعدو الذي يحاول منع إنجاز المَهَمَّة. لقد كانت معركة الفلوجة الأولى هزيمة للقوات الأمريكية لا بسبب نقص القدرات القتالية، بل بسبب عدم كفاية التخطيط، ونسبة القوات، وعمليات المعلومات، والدعم السياسي للعملية.

ملاحظة: المصطلحات والآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

العقيد جون سبنسر رئيس دراسات الحرب الحضرية في معهد الحرب الحديثة، والمدير المشارك لمشروع الحرب الحضرية التابع لوزارة المياه والري، ومضيف البث الصوتي لمشروع الحرب الحضرية. وقد عمل سابقًا كزميل لرئيس أركان مجموعة الدراسات الإستراتيجية بالجيش. خدم لمدة خمسة وعشرين عامًا في الخدمة الفعلية كجندي مشاة، خاض خلالها جولتين قتاليتين في العراق. وهو مؤلف كتاب «الجنود المتصلون: الحياة والقيادة والاتصالات الاجتماعية في الحرب الحديثة» ومؤلف مشارك لكتاب «فهم الحرب الحضرية".

الرائد جيسون جيروكس هو ضابط مشاة في الفوج الملكي الكندي ويعمل حاليًا في مركز عقيدة وتدريب الجيش الكندي. لقد كان طالبًا متحمسًا وشارك في التدريب على العمليات الحضرية لمدة عقدين من الزمن، وهو مؤرخ عسكري متحمس بنفس القدر، حيث شارك في العمليات الحضرية وتاريخ الحرب الحضرية وخطط لها ونفذها وأعطى تعليمات مكثفة بشأنها على مدى السنوات الثمانية الماضية. وقد خدم لمدة سبعة وعشرين عامًا في القوات المسلحة الكندية، والتي شملت جولات عملياتية في يوغوسلافيا السابقة (البوسنة والهرسك) وأفغانستان.

الآراء المعبر عنها هي آراء المؤلفين ولا تعكس الموقف الرسمي للأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة، أو وزارة الجيش، أو وزارة الدفاع، أو موقف أي منظمة ينتمي إليها المؤلفون، بما في ذلك عقيدة الجيش الكندي ومركز التدريب والقوات المسلحة الكندية ووزارة الدفاع الوطني الكندية.

alkhattabirw